الملف

سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م

« ندوة عالمية »

جامعة حلب ـ جامعة روما

حلب ، ٢٠ ـ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣ هـ / ١٧ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سـورية واصـل الزراعـة

د. سـلطان محيسـن
ج . دمشـق

مقدمة : عاش الانسان على امتداد القسم الاكبر من عصـور ما قبل التاريـخ (العصر الحجري القديم) متنقلا يجمع طعامه بالصيد والتقاط الثروات البرية التي اختلفت كما ونوعا تبعا للظروف . ومع بداية العصر الحجري الحديث ، النيوليت . حصل تحول جذري في اسلوب انتاج الغذاء لدى الانسان ، فلم يعد يعتمد اعتمـادا كاملا على الطبيعة وثرواتها المتقلبة وانما بدأ يتحكم بنفسـه بانتاج قوته وضمان عيشه. وهكذا ترك حياة التنقل واقام في قرى دائمة مارس فيها زراعـة الحبـوب وتدجين الحيوانات بشكل سد حاجة افراده المتزايدين باستمرار . لقد كان هذا التحـول الاقتصادي ، وما رافقه ونتج عنه من تحولات اجتماعية ، من الاهمية لدرجـة دفعت الباحثين لان يطلقوا عليه « الثورة الزراعيـة » او « ثورة انسـان العصر الحجـري الحديث »(١) . ومنذ مطلع هذا القرن تحظى ظاهرة نشوء الزراعة باهتمام متصاعد وتتضافر الابحاث والعلوم والتقنيات الحديثة بهدف تحديد كيفية حدوث تلك الظاهرة ـ التي تعتبر بداية الحضارة الانسانية بمعناها الشامل والمعقد ـ وزمانها ومكانها . وقد تبين ان منطقة المشرق القديم كانت مهد هذا التحول لما تمتعت بـه من شروط بيئية ـ جغرافية وحضارية ـ تاريخية ، لم تتوافر لاية منطقة اخرى من العالم . وتبين أيضا أن دور بلاد الشام كان مركزيا . وعلى الرغم من ان بلاد المشرق العربي القديم كونت وحدة حضارية باكرة تبلورت في اطار طبيعي وجغرافي واحد ، ومن غير الممكن ان نفصل بين سورية وبين بقية بلدانه عند دراسة ظاهرة موغلة في القدم جرت احداثها وتكاملت على مسرح هذا المشرق ، فاننا آثرنا الاقتصار على عرض المكتشفات السورية اختصارا للبحث ولان تلك المكتشفات على درجة من التكامل والدلالة والاهمية مما يجعل منها نموذجا مثاليا لفهم الزراعة نشوءا وتطورا .

---

* اعد هـذا البحث للندوة العالمية حول « تاريخ سورية والشرق الادنى القديم ، ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ ق.م » التي نظمتها جامعة حلب بالتعاون مع جامعة روما (٢٠ ـ ٢٣ ربيع الاول ١٤١٣هـ / ١٧ ـ ٢٠ تشرين الاول ١٩٩٢) .

دراسات تاريخية ، ٤٥ / ٤٦ ، آذار ـ حزيران ١٩٩٣ .

تاريخ البحث :

تعود الدراسات الجدية الاولى حول نشوء المستوطنات الزراعيـة الباكرة في سورية الى الثلاثينات من هذا القرن ، وكانت أولها التنقيبات والابحاث التي اجراها الامريكي روبرت بريدوود R. Braidwood في منطقة العمق شمال غرب سوريـة وبخاصة في موقع تل الجديدة والكشف فيه عن قرية زراعية تعود الى الالف السادس ق.م(٢) . وكذلك الكشف عن قرية زراعية اخرى من العصر نفسه في تل حماه من قبل بعثة دانماركية بادارة هارود انغولت H. Ingholt (٣) وقـد مـرّ زمـن طويـل اعتبرت فيه مناطق حماه والعمق ، من خلال ما ظهر من تتابع حضاري طويل ومستمر، مفاتيح التحولات الزراعية لمجتمعات العصر الحجري الحديث . بعد الحرب العالميـة الثانية حصل تحول هام في الابحاث والمكتشفات فتطورت المناهج والاساليب واصبح البحث عن البقايا النباتية والحيوانية القديمة من اهم اهداف المنقبين والعاملين ، كما تحسنت طرق التأريخ المطلق وبخاصة طريقة الفحم المشع ١٤ (C14) واصبحـت المكتشفات الاثرية تخضع لتحاليل مخبرية تحدد التحولات الحاصلة في شكل النباتات والحيوانات المدجنة وحجمها لتمييزها عن الانواع البرية فكانت تنقيبات راس الشمرة التي بينت أن السوية الخامسة من هذا التل ، التي ترقد تحت انقاض مملكة اوغاريت الشهيرة ، تعود الى مجتمع زراعي قام هناك منـذ نهاية الالف السابـع ق.م(٤) . كما تبين أن مستوطنة زراعية معاصرة قد نشأت على الساحل السوري أيضا في تل سوكاس الى الجنوب من جبلة(٥) . وفي الستينات تتابعت وتكاثرت الاعمال وتزايدت أهمية المكتشفات ، وبدأت تنقيبات هنري دوكنتنسـون H. de Contenson في حوضة دمشق في مواقع تل أسود وتل الخزامي وتل الغريفة وتل الرمـاد ، التي كشف فيها عن مستوطنات زراعية تعود الى الالف الثامـن حتى الخامس ق.م(٦). وتوبعت تلك الاعمال على امتداد السبعينات ... بينما كانت تجرى في الوقت نفسه تنقيبات في حوض الفرات قبل انشاء السد وتشـكل بحيرة الاسـد ، بحملة جاءت باكتشافات فاقت كل التوقعات ، من مواقع تل المريبط وتل الشـيخ حسن وتـل أبو هريرة التي اكدت انتقالا محليا وتدريجيا من مجتمعات الصيد والالتقـاط الى مجتمعات الزراعة والتدجين ، تم في حوض الفرات الاوسط منذ مطلع الالف الثامن ق.م(٧).

ومنذ الثمانينات حصلت تطورات جديدة وبـدأت تنقيبـات في مواقـع الكوم والغدير في البادية السورية أكدت وجود مجتمعات زراعية مستقرة الى جانب مجتمعات رعوية متنقلة في البادية منذ الالف السابع ق.م(٨) ، كما تجرى حاليا تنقيبات عديدة في مناطق الغمر بفعل السدود التي هي قيد الانشـاء في أحواض الخـابور والبليخ والفرات الاعلى حيث ظهرت عشرات المواقع العائدة الى العصر الحجري الحديث مثل

تل الدامشلية وتل الصبي الابيض في البليخ، وتل الفيضة وتل حنكة وتل كشكشوك في الخابور ، وتل حالولة وتل جعدة المغارة في الفرات ، وكلها مواقع تعطي الجديد في كل يوم مما يبرهن على ان ارض سورية كان لها دور اساسي في نشـــوء المجتمعات الزراعية الاولى وتطورها (٩) .

المجتمعات الزراعية الاولى :

لم تكن الزراعة اكتشافا فوريا مفاجئا، وانما اتت نتيجة عملية تحول طويلة وبطيئة تعود جذورها الى آلاف السنين . واذا كانت الزراعة قد مورست منذ النصف الاول للالف الثامن ق.م . فان الشروط المناخية والحضارية التي مهدت لها سبقتها ببضعة آلاف من السنين على الاقل . فمنذ العصر الحجري الوسيط ، الميزوليت ، انتشرت على مناطق واسعة من سورية والمشرق ، جماعات بشرية متطورة العدة والعـدد ، تخصصت في صـيد حيوانات محددة والتقاط نباتـات معينة دون غيرها . وهـذه الحيوانات والنباتات هي التي تم تدجينها فيما بعـد . وافضل ممثل لهذه المرحلـة الممهدة هي المجتمعات الكبارية وبعدها المجتمعات النطوفية التي حققت تحولا اقتصاديا واجتماعيا جعل ممارسة الزراعة امرا ممكنا بل وربما حتميا . ان القرى الزراعية التي تعنينا في هذا البحث عاشت على امتداد نحـو اربعة آلاف عام اي منـذ مطلع الالف الثامن ق.م وحتى نهاية الالف الخامس ق.م . ولكـن ابتكارات تلك القرى لم تكـن واحدة ولا متزامنة وانمـا تنوعت في الزمان والمكـان . وتسهيلا لاستيعاب التحولات الاقتصادية والحضارية على امتداد الزمن المدروس راينـا من المفيد ان نقسم هـذه المرحلة الى قسمين رئيسين : الاول يتناول المجتمعات الزراعية الباكرة على امتـداد الالفين الثامن والسابع ق.م والقســم الثاني يتناول المجتمعات الزراعية المتطورة في الالفين السادس والخامس ق.م .

المستوطنات الزراعية الباكرة :

ان مرحلة الالفين الثامن والسـابع ق.م هي عصر نشوء وتشكل القرى المستقرة التي زرعت الحبوب ودجنت الحيوانات ووفرت بذلك القسم الاكبر من غذائها دون ان تتخلى بعد تماما عن الصيد والالتقـاط البريين . ان الاثـار الاولى والاقدم لزراعـة الحبوب اتت من بضعة مواقع سورية، اهمها تل اسود (السوية آ) في حوضة دمشق حيث عثر على بقايا مباشرة لحبوب متفحمة من القمح والشعير والحمص والعدس تعود الى نحو ٧٨٠٠ سنة ق.م. وهي بذلك اقدم دليل مؤكد معروف حتى الان عن الزراعة في العالم كله(١٠) . وفي الوقت نفسه تقريبا اظهرت التحاليل المخبرية تزايدا واضـحا

في كمية غبار طلع حبوب القمح والشعير في موقع المريبط (السوية الثالثة) مما يدل على ان السكان قد نقلوا تلك الحبوب الى جوار قريتهم وزرعوها مدركين ماذا يفعلون(١١) . وقد امتدت القرى الزراعية في هذا العصر على مساحات واسعة ، وصلت حتى ٣٠٠٠٠ م٢ في المريبط مثلا ، اقام سكانها في بيوت كبيرة دائرية الشكل وبيضوية ، من اللبن والحجر والخشب ، قسمت من الداخل الى اقسام مختلفة المساحات : للطبخ ، والتخزين ، والنوم ، كما في البيت ٤٧ في المريبط . ثم ما لبثت تلك البيوت ان اصبحت مستطيلة الشكل متلاصقة بشكل يمكن من زيادة عدد غرفها كلما دعت الضرورة . كما تطورت ادوات تلك الجماعات وتقنياتها فظهرت بخاصة الادوات الزراعية كالاجران والرحى والمدقات والمناجل ....

ورافق هذا التطور الاقتصادي تحول اجتماعي هام فظهرت معتقدات جديدة دلت عليها تماثيل الالهة الام الاولى وقرون الثور المغروسة في جدران البيوت والقبور المزودة بالاضاحي في المريبط وظهرت لاول مرة تقريبا احجار غريبة « الاوبسيديان » الذي استورد من مناطق الاناضول البعيدة مما يشير الى علاقات تجارية للمزارعين الاوائل تخطت مناطقهم بكثير . اضافة الى المريبط والشيخ حسن وتل اسود ، وجدت دلائل المجتمعات الزراعية الباكرة في مواقع تل قرامل في منطقة حلب وتل جرف الاحمر في حوض الفرات الاعلى وغيرها . ولكن الموقعين الاخيرين لم ينقبا بعد ((١١ آ) . ومهما يكن فان النصف الاول للالف الثامن ق.م هو عصر بواكير الزراعة ودلائلها الاولى . اما في النصف الثاني منه فقد تابعت المجتمعات الزراعية الباكرة تطورها فاتسعت قراها وامتدت على هكتارات عدة (١٢هـ . ابو هريرة) وتطورت المنازل واصبحت ذات اشكال مستطيلة مبنية من اللبن والحجر لها مخططات محددة مزودة بالمواقد والتنانير ودكات النوم ، والمخازن ، تفصل بينها شوارع وباحات ، ارضها وجدرانها مطلية بالملاط الابيض وقد حملت بعض جدرانها رسوما هندسية او اشكالا لطيور ، كما في تل بقرص حيث نفذت على جدران احد البيوت لوحة جميلة تمثل طيور النعام باللون الاحمر على خلفية بيضاء، اضافة الى تماثيل ووجوه بشرية من الطين نزلت عيونها بحجر الاوبسيديان ، واوان وادوات زينة غنية ومتنوعة ، كالخرز والخواتم والاساور والاختام . ومن جهة ثانية تطورت المعتقدات والشعائر فظهرت الى جانب معتقدات « الالهة الام » و « الثور المقدس » عقيدة « تقديس الاموات » التي دلت عليها الجماجم المحنطة الموضوعة على قواعد وتماثيل طينية في بيوت السكن ، كما في المريبط وتل الرماد . لقد دفن سكان القرى الزراعية الباكرة موتاهم داخل بيوتهم بعد ان فصلوا في حالات كثيرة الجماجم عن الاجساد(١٢) ، كما طور سكان هذه القرى ادواتهم واجهزتهم باستمرار كرؤوس النبال والمناجل والبلطات وادوات الجرش والدق والطحن ، وتابعوا تحسين قدراتهم في مجال زراعة الحبوب والبقول ، وتدجين

الحيوانات وانتشرت قراهم في كل المناطق الجغرافية السورية ، في الفرات والبادية حتى السواحل ، بعد ان تزايدت اعدادهم وتمتنت اواصر بنيتهم الاجتماعية . كما تابعوا علاقاتهم التجارية البعيدة المدى مستوردين الاوبسيديان والاحجار النادرة الاخرى من الاناضول ومناطق زاغروس وغيرها .

المستوطنات الزراعية المتطورة :

بعد مرور نحو الفي عام على ممارسة الزراعة اكتملت انجازات المجتمعات الزراعية بابتكار الاواني الفخارية التي باتت الحاجة لها ضرورية اكثر من اي وقت مضى ، من اجل تخزين الطعام والشراب في القرى الزراعية المتزايدة الانتاج وبعد ان نضجت القدرات التقنية اللازمة لتصنيع الفخار . ومع الفخار اصبحت هذه المادة الاثرية الهامة معيارا اساسيا في التمييز بين الشعوب والحضارات في الزمان والمكان. ان الاواني الفخارية الاولى التي تعود الى منتصف الالف السابع ق.م ظهرت في موقع تل اسود في الجزيرة السورية العليا وهي من الفخار البسيط المصنوع باليد والمصقول او المزخرف بالحز او الطبع . ونعتقد انه من هذه المنطقة بالذات انطلقت صناعة الفخار الى بقية المناطق في الاناضول والرافدين وسواحل المتوسط ومهما يكن الامر فقد انتشر مع مطلع الالف السادس ق.م استخدام الاواني الفخارية بشكل شامل ، وتنوعت في الشكل والتقنية والزخارف ، وغطى السواحل السورية فخار قاتم اللون مصقول ولامع (فخار العمق آوب) في حين ساد في الفرات والجزيرة فخار فاتح اللون مصقول احيانا . مع مناطق تواجدت فيها انواع مختلفة من هذه الاواني كالبادية السورية .

في هذا العصر اتقنت فنون الزراعة والتدجين واصبح المردود الزراعي مصدر العيش الوحيد تقريبا ، بعد ان تراجع الاعتماد على الصيد والالتقاط الى درجة كبيرة. وهكذا زرع القمح والشعير والعدس والحمص والفول ونباتات اخرى لم يبق لها اثر واضح في الواقع ، ودُجن الغنم والماعز والبقر على نطاق شامل في كل المستوطنات التي تزايدت مع تزايد السكان . ان مستوطنات هذا العصر هي في الواقع استمرار طبيعي لمستوطنات العصر السابق ، لكنها عموما اكبر ، ومواد بنائها من اللبن والحجر والخشب ، المعدة سلفا لاغراض البناء ، افضل تجهيزا . وكانت ارضيات البيوت وجدرانها تطلى بالملاط . ولكننا لم نعثر على ما يدل على ان سكانها زخرفوا جدرانها مثلما فعل اسلافهم في العصر السابق . كما وحصل تحول هام في مجال دفن الموتى فلم يعد هؤلاء يدفنون داخل بيوت السكن وانما في مناطق محددة خارج المستوطنات المعمرة . ويمكن القول انه في هذا العصر ظهرت المقابر بمعناها المتعارف عليه . وفي مجال

الشعائر والمعتقدات لا نظن ان هناك تبدلا ملحوظا ، فقـد استمرت معتقدات العصـر السابق وان كنا نجد فقرا واضحا في الدمى والتماثيـل والفنون دون أن نسـتطيع تفسير ذلك الان .

وبشكل عام بقيت الادوات والاسلحة الحجرية تستخدم على نطاق واسع كرؤوس النبال التي يلاحظ أن تواجدها تباين من موقع لآخر مما يدل على تباين دور الصيد من مستوطنة لاخرى . وتزايدت الادوات الزراعية من المناجل والبلطات وادوات تحضير الحبوب وقطع الاشجار بعد أن وصلت المستوطنات الى الغابات والمناطق الجبلية التي كانت مغلقة سابقا . في منتصف الالف السادس ق.م حصـل تبدل في وتائر تطـور المجتمعات الزراعية السورية فدخلت المناطق الشمالية من سورية ـ مناطق الجزيرة والفرات وما هو الى الشمال من حمص تقريبا ـ في عصر جديد هـو العصر الحجري النحاسي ، وحصل بذلك تكامل حضاري مع بلاد الرافدين حيث سادت الحضـارة الحلفية على كل هذه المناطق بتجانس . وهذا دليل وحدة حضارية هي الاكثر تعبيرا حتى الان ، واما المناطق الجنوبية من سـورية بما فيها فلسطين فقد تابعت تطورهـا السابق ولم تدخل في العصر الحجري النحاسي الا في مطلع الالف الرابع ق.م وبذلك انتهت مرحلة طويلة من ابتكار وتأسيس وارسـاء دعائم أبديـة لمجتمعات الزراعـة والتدجين في المشرق العربي القديم .

خاتمـــة :

يمكن أن نوجز القول بأن نشوء الزراعة قد مر بمرحلتين رئيستين ، الاولـى زرعت فيها أنواع معينة من الحبوب ودجنت حيوانـات محددة ولكـن بقي الصـيد والالتقاط من مصادر الغذاء الهامة . وفي المرحلة الثانيـة اختفى الصيد والالتقـاط وأصبحت الزراعة والتدجين مصدر النشاط الاقتصادي ـ الغذائي الوحيد .

لقد تكاملت هذه العملية على أرض سورية وعلى امتداد العصر الحجري الحديث ولكن مسرح الاحداث الاكبر غطى منطقة المشرق العربي القديم بمـا فيها الاناضـول ومناطق زاغروس حيث حصلت تحولات زراعية هامة على طول وعرض هذه المنطقة ، وما مواقع أريحـا في فلسطين والبيضا في الاردن وجارمو في العراق وجبيل في لبنان الا النصف الاخر للمواقع السورية التي أتينا على ذكرها .

واذا كنا قد استطعنا ان نعرض متى وأين وكيف نشأت الزراعة فانه يجدر أن نشير الى مشكلة تحظى باهتمام متصاعد من الباحثين ، وهي لماذا اكتشفت الزراعة ؟

وهو سؤال من الصعب ان يحظى باجابة قاطعة . لذلك نرى المواقف تتباين بل وتتناقض احيانا في السبب الذي دفع مجتمعات العصر الحجري القديم الى تبديل نمط حياتهما الاقتصادي متجهة نحو زرع الحبوب وتدجين الحيوانات وبعض الباحثين يعطي الاهمية للبيئة وتحولاتها التي جعلت الزراعة امرا ممكنا ، في حين يرجح البعض دور القدرات التقنية ، وآخرون يعطون العامل الاجتماعي الدور الاهم بينما يقول غيرهم بأن تزايد السكان دفع الى الزراعة من أجل اطعام الناس المتكاثرين ، كما أن هنالك من يقول بأن الفكر الانساني هو الذي أبدع هذه العملية الاقتصادية المنظمة لاسباب نفسية ـ حضارية دون أن تكون الحاجة الاقتصادية هي السبب . كل ذلك مع فرضيات اخرى لا نستطيع الخوض فيها الان(١٣) . ومهما يكن فاننا نعتقد بأن عملية الزراعة فعل مركب ساهمت في حصوله عوامل عديدة : بيئية وجغرافية واجتماعية وتقنية وفكرية وسكانية وغيرها ، دون أن نستطيع الان تقرير أرجحية مطلقة لعامل واحد او تحديد الدور الحقيقي لكل من هذه العوامل .

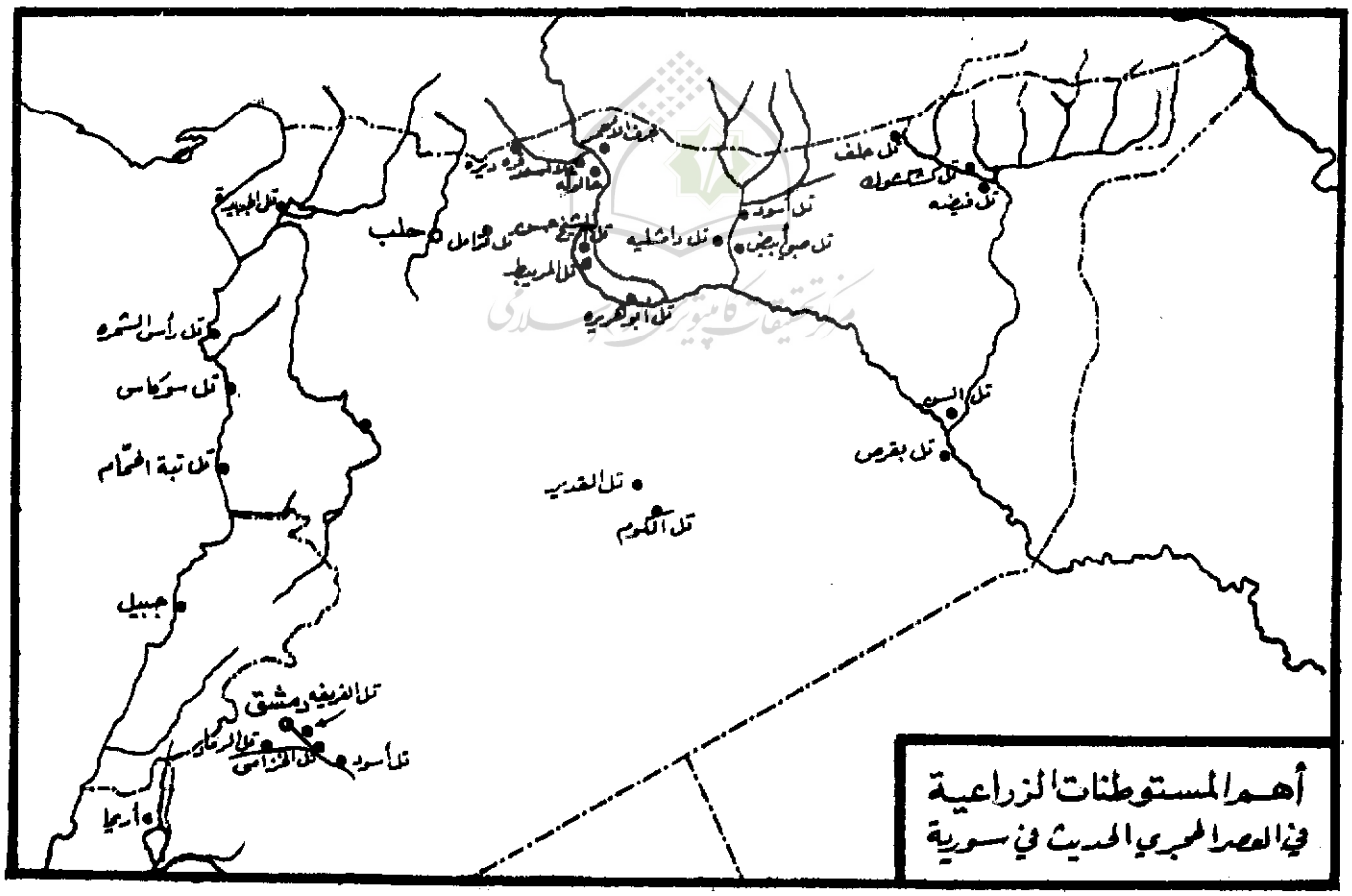

أهم المستوطنات الزراعية في العصر الحجري الحديث في سورية

الحواشـــي :

(١) Childe, V. G., 1951, **Social evolution,** London .

(٢) Braiwood, R.L.and Braidwood, L. S., 1960, **Excavation in ihe Plajns of Antioch I,** Oriental Institut Publicatin n. 61,Chicago

(٣) Ingholt , H ; 1940 , **Rapport Préliminaire sur sept campagnes de fouilles à Hama en Syrie (1932 — 1937).**

(٤) Schaeffer C.F.A. 1962 . « Les fondements préhistoriques d' Ugarit,» in **Uqritica** IV (15) 151 - 240 ; Archaeologisk - Kumsthistoriske meddelment II

(٥) Riis, P.Y. et Thrane, H, 1974, **Sukas III:** The Neolitic periods publication of carlsberg Expedition to Phoenicia, 3, Copenhagen, Munksgand.

(٦) Contenson, H. 1978, « Recherches sur le néolithique de Syrie (1967 - 1976) » C. R.A.L. 820-825

(٧) Cauvin, J. 1978, **Les premiers Villages de Syrie - Palestine du IXeme au VIIeme millénaire avant J.C.,** publication M.O.,n.4

(٨) Cauvin, J. 1982, « L'Oasis d' el Kowm au néolithique , Bilan d'aprés trois campagnes; métodes , problémes et résultats, **Cahiers de l'Euphrate 3,**

(٩) هذه التقنيات مستمرة ، نشر عنها مقالات وتقارير في مجلات عالمية متنوعة ، اهمهـــا مجلة Paléorient التي يصدرها مركـز الابحاث القومي الفرنسي،وفي مجلات هولندية وامريكية ومعظم هذه المواضيع قيد النشر.

(١٠) Moor, A. 1985, « Neolitic Societies in the Near Eest , » in **Advances in Archaeology ,** vol . 4, p. 1-69 .

(١١) Leroi - Gourhan , Arl 1974 , « Etudes palinologiques des derniers 11000 ans en Syrie Semi - désertique », **paléorient** 2/443 - 451 .

(١١) آ انظر المسح الهام الذي اجراه جون ماثرز في منطقة نهر قويق :
Matthers, « The River Qoueiq, Nothern Syria and its catchement» , **BAR.** I.S., 98, 1981 .

(١٢) Contenson, H. 1971 , « Tell Ramad,a village of Syria of the 7 th and 8 th millenia B. C » . **Archeology** 24, 278 - 283 .

(١٣) Henry, D; 1989, **Form Foraging** the agriculture, the Leveant at the and of the ice age , philadilphia, U.S.A.
Redman, C.C., 1978,**The rise of civilisation ,** San Francisco
Mellaart, J.1975, **The neolitic of the Near East,** London .